آراء في الأدب العربي

• التيارات الأدبية في العراق

• الزهاوي الشاعر القلق

الدكتور
يوسف عز الدين

منشورات
مكتبة النهضة
بغداد

التيارات الأدبية في العراق

الزهاوي ... الشاعر القلق

مطبعة المعارف – بغداد
١٣٨١ – ١٩٦٢

الى :

الاخ الاستاذ محمد عبدالمنعم خفاجى

وأعضاء رابطة الادب الحديث ـ فى القاهرة

اذ لولاهم لما خرجت هذه المحاضرة الى الوجود

تفضلت رابطة الادب الحديث فى القاهرة ـ هذا الصيف[١] ـ فدعتنى لالقاء محاضرة عن الشعر العربى المعاصر فى العراق ، وبعد المحاضرة ، اتاحت لى فرصة طيبة ، سعدت فيها فى التعرف على مجموعة ممتازة ، من رجال الادب والفكر فى القاهرة • كانت ساعات جنيت منها ألذ الاحاديث ، وريق المسامرات ، اذ انسابت ذكريات الحياة الجامعية الحلوة ، وبحوث الادب والتاريخ والعلم ، واختالت زاهية ، بأجنحة النسيم العذب الرفاف ، على ضفاف النيل الحبيب ، فابتسمت راضية ••• مرضية ••

وقد نشرت (مجلة المعلم الجديد) نصا مقاربا للمحاضرة ، وبعدها نشرت مقالة (الزهاوى) فرأيت أن تضم الى الاولى لان كثيرا من الادباء لا يقرأون المعلم الجديد • ويؤسفنى ، أن فاتنى ذكر بعض الشعراء فى المحاضرة المرتجلة ، واذا اعدت طبعها فسيكون امرها خيرا منها اليوم •

ولا يسعنى الا شكر أعضاء الرابطة الادبية الكرام ، واخص بالذكر الاستاذين الزميلين ، عبدالمنعم خفاجى ، والاستاذ عبدالله عبدالجبار ، فقد تلطفا عليّ وألبساني من حلل الثناء والاطراء ما أعجز عن رده ، وأشكر لهم جميل الضيافة وبالغ التكريم• كما أشكر الاستاذ الفاضل قاسم الخطاط على ما تفضل به عليّ فيما نشره فى الصحف عني وعن المحاضرة فقد دل على كريم الخلق ورقيق السجايا •

واشكر اولئك الزملاء والزميلات فى الجامعة ، وغير الجامعة ، الذين جاؤا من مسافات بعيدة للاستماع الى المحاضرة ، رغم وقدة الحر ، فقد غمرتنى احاسيسهم ، وهزت نفسي عواطفهم ، فقد برهنوا على صدق الوفاء ، ومتانة الروح الجامعية •

وأخيرا ما أنا الا طالب علم ، احب الفائدة ، واقبل النقد ، فالمرجو من اصحاب الآراء الناضجة ، والافكار السديدة ، توجيهى الى الخير والصواب ، وخاصة ان من نتحدث عنهم من الاحياء •

ومن الله العون والسداد

بغداد **يوسف عزالدين**

(١) القيت فى ٢٢ـ٨ـ١٩٦١ •

التيارات الادبية فى العراق

الدكتور يوسف عز الدين

للتيارات الادبية في العـــراق جذور عريقة يذهب بعضها الى القرن التاسع عشر وبعضها الى قرون بعيدة تمتـــد جذورها الى التراث الاسلامى والعربى فى الصدر الاول •

ويمتاز التيار الادبى فى العراق فى القـــرن التاسع عشر عن سواه بوحدة الثقافة العامة والمعرفة الادبية ، فجميع الادباء هم من طلاب المساجد والمعاهد الدينية وقد تأثروا بتيارات تكاد تكون واحدة ، وان كان هنـــاك اختلاف فى الانتاج فأساسه عمق الثقافة والذكاء ، وتمثل التجربة الفردية والانفعالات النفسية •

اما ادباء مصر فى الجيل الماضى فقد تفاوتت ثقافتهم تفاوتا بيناً فمنهم من درس فى باريس وتأثر بالعلوم الاوربية والآداب الفرنسية ، ومنهم من درس فى استانبول أو فى الازهر وتأثر بالمحيط الذى عاش فيه ، وفيهم ابن قرية صغيرة وابن القاهرة ، لذلك كانت الفروق واضحة والمعالم بينة بين كل فئة واخرى ، كوضوحها بين شعر البارودى وعبد الله فكرى مثلا •

اما العراق فثقافة عبد الغفار الاخرس وعبد الباقى العمرى وحيـــدر الحلي ومحمد سعيد الحبوبى لا تختلف عن ثقافة أى شاعر أو كاتب مثـــل محمود شكرى الآلوسى وحسين العشارى • وما اختلاف الانتاج قـــوة وجزالة الا من باب الفروق الفردية كما يقول علماء النفس •

ويبدو التيار الادبى واضحا فى جذوره فقد كانت تمده اربعة روافد تتحد كلها فى مجرى واحد ويصقلها متبلورة ، التفكير الادبى العام •

وأبرز رافد أثر فى التيار الادبى فى القرن التاسع عشر هو الدين ، يظهر طورا فى رثاء الحسين والدعوة الى محاربة الظلم والطغيـــان ، وتارة بالدعوة الى الاصلاح ، وكان (شعر الحسين) زاخراً بالثورة على الاستبداد ومن شعراء هذا الميدان جعفر الحلي وحيـدر الحلي ومحسن الخضرى وابن كمونة وغيرهم • فجاء رثاء الامام الحسين قوى الأداء ، صادق الأحاسيس ، وفى سمو قدر الحسين ومنزلته العظمى خير نموذج يحتذى فى سبيل الحق والعقيدة والعدل ، فقد قال حيدر الحلي :

عثر الدهر ويرجـــو أن يقالا ... تربت كفــك من راج محـالا
أي عـــــذر لك فى عاصـفة ... نسفت من لك قـــد كانوا جبالا
فتراجـع وتنصّـل نـــدما ... أو تخـادع واطلب المكر احتيالا

ولنقف عند هذا البيت ونمعن النظر بما فيه من معانٍ لطيفة وصياغة سامية :

فرغ الـكف فلا أدري لمـــن ... فى جفير الغدر تستبقى النبـالا

ولنقف عند بيتين آخرين من شعره فى وصف الحسين وشجاعتــه وصبره ونضاله فى سبيل عقيدته وايمانه بحقه :

تعثر حتى مات فى الهام حدّه ... وقائمــه فى كفـــه ما تعـثرا
كأن اخـاه السيف اعطي صبره ... فلم يبرح الهيجـاء حتى تكسرا

ويظهر الشعر الدينى فى مدح الرسول الكريم ، ويركن اليه الشاعر ترويحا عن نفس مكروبة آلمها الذل وارهقها القلق والحيرة وأوجعها الفقر والامراض فيصرخ البزاز قائلا :

يا غيـــاث الخلق والغيث الذى لم يزل نائله يجـــرى ارتكاما
كن مجيري من أذى الدهر فقد جردت أيديه للبغى حســاما

وقد عاش الشعر الدينى على المدائح النبوية فى شعر كعب ابن زهير والبوصيرى وابن الفارض ومن هؤلاء الشعراء حسين العشارى ومحمـــد شيت الجومرد ونعمان خير الدين الآلوسى ، ويدخل فى الشعر الدينى شعر الطرق الصوفية كالنقشبندية والقادرية والرفاعية ، فقـــد خمست قصائد المدائح النبوية ورصع الشعراء شعرهم ببعض ابياتها ، وقد صنع شعراء مصر مثل ما صنع اخوانهم فى العــراق كالساعاتى واضرابه ، فقد كان تقليـدهم حرفيا و حاول الشعراء أن يعيشوا فى نفس الجو الذى عاشه شعراء المدائح فوجدنا مثل (رامة ، ولعلع ، وضارج ، والخزامى ، ونجد ، وحاجر) فى شعر ابن بغداد والموصل والبصرة مع انه عـاش فى المدينة ولـم ير هاتيك الديار ولا تلك الأثار لكى يتبرك بها .

والرافد الثانى هو المديح عامــة الذى كان يقدم للسلطـــان والوالى والموظفين فهذا شعر يطفح بالذل ويفيض بالهوان والمبالغات المجوجـــة . وشعر هذه الفترة صدى لتردى المثل العليا والخـــوف والرعب من الولاة والحاكمين فاذا كان الحاكم مطلق التصرف نما شعر المديح الذليل فى عهده . لان السلطات الحاكمة شلت مهمة الاديب الانسانية واتخذته اداة من أدواتها وزينة لمجالسها وحكمها ، ولم تعطه الحرية الكافية وتعترف به انسانا ، فقد قال التميمى :

من لي بتقبيل كف صـوب عارضهـا
يزرى بواكف صوب العارض الهطل

وقال السيد حيدر فى مبالغة غير مستحبة :

لو شئت قتل الدهر ثم درى
لقضى عليه قبلك الأجل
ان تنتعل قمم الملوك فقد
توجتهم بالفخر لو عقلوا
وطأت لك الدنيا بأخمصها
همم بساط نعالها القلل

أما التيار الثالث فهو تيار المناسبات المعروف والذى يفرضه الفراغ الكبير فكان الشاعر ينظم قصيدة فى وصف دجاجة وقصيدة فى استهداء السعف واخرى فى خروج عذار أو بناء غرفة • وهو نفس الجو الذى كانت تعيش فيه مصر فى عصر الجبرتى مع فارق واحد هو ظهور لمحات جديدة فى الشعر العربى فى العراق وجدت فى شعر مصر بعد ثورة عرابى أو قبلها بقليل • والخلاصة ان الشعر كان يلبى رغبة كل طالب كما كان وسيلة للمصالح الفردية (١) •

الى جانب هذا الشعر كان الشعر الذى ابتعد عن ذل السؤال وترفع عن الزلفى والثناء الكاذب حيث كان بعض الشعراء ذاكرين العهد العربى الزاهر مفتخرين بأصلهم العربى ومجدهم العريق نادبين أيام العرب الزاهرة مقارنين بين تلك الايام وما حاق بهم من فساد وتدهور رغم ان الحكم العثمانى كان حكما مسلما ، فكان ذلك يبعث الشعر القومى السياسى الذى شب فى القرن العشرين وسمقت شجرته وارفة الظلال ، وكانت تلك

(١) بصدد الامثلة يراجع الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ص ١٨٩ وما بعدها •

المظاهر شعورا بالعـزة القوميـة العربيـة ورد فعل للمعاملة التى عامل بهـا العثمانيون العرب حتى تمنى ابن الجميل أن يترك العراق وما فيه ليتخلص من الذل والهوان • فقال :

عــلام الاقامـة فى بلدة نعد بهـا مثل حمر النعم

وقد وصف الغلامى هذه المعاملة بصورة لطيفة حتى دفعه اليأس الى الموت فقال :

يا ليتنا متنا قبيـل الأذى وقبل هذا الذل والمسكنة

وقد أسف الأخرس أشد الاسف لذهاب العرب وعدم فهم الحاكمين لشعوره العربى فقال:

أسفي على عمر تقضّـى شـطره فى خيبـة المسـعى الى الآمــال
وبنــات افكار لنــا عربيـة رخصت لدى الاعجام وهى غوالى
يا هــذه أين الذين عهــدتهم آســاد معتــرك وغيث نــوال

كان التيار العربى قويا رغم أن الحكام لم يكونوا من العرب وقد تأثر الولاة بهذا التيار وحاولوا أن ينصهروا به ، فحـاول داود باشا أن يؤسس دولة عربية فى بغداد على غرار دولة محمد علي باشا فى مصر وحاول غيره من الولاة تعلم العربية وأدعى بعضهم أنه ينظـم الشعر العربى ، وصاهر بعضهم العرب ولكن لم تكن هناك وحدة فى الرأى ولا وجهة قومية ظاهرة المعــالم •

وبالرغم من مظاهر الانعزال الظاهرة فى البلاد العربية الا انها كانت بلدا واحدا يحكمها سلطان واحد ، وقد كانت بعيــدة عن بعضها لصعوبة المواصلات وما يحف المسافر من اخطار ، ومع ذلك فقد كانت التيارات فى

البلاد العربية تتجه نحو وجهة عربية مشوشة المعالم حتى أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وانتشرت الجرائد فبدأت اليقظة الفكرية فى العراق ، اذ استفاد العراقيون من جميع تجارب مصر الفكرية بعد الحملة الفرنسية ، فرأينا الاديب العراقى يقفز ويسير مع الشاعر المصرى ، لذلك لم نجد فى العراق من مثل دور محمود سامى البارودى واسماعيل صبرى باشا لان النهضة وصلت العراق كاملة فتأثر الشعراء بها متأثرين بتيارات الفكر العربى فى مصر وسوريا بوساطة الجرائد والمجلات العربية كالهلال والمقتبس والمؤيد والمقطم والمقتطف حيث نشرت قصائد حافظ وشوقى ومطران الى جانب قصائد الزهاوى والرصافى والدجيلي والشبيبى وخيرى الهنداوى .

ويظهر أثر هذه النقلة فى شعر الشعراء ، فاذا قرأنا أول شعرهم وجدناه يعنى بالمحسنات اللفظية وكأنه من شعر القرن التاسع عشر ، فيه ترصيع وتخميس وتشجير ورد الصدر على العجز ، وبعدها نجده شعرا يساير النهضة الحديثة من عناية بالمعانى والسهولة والبساطة ، وبذلك جمع الشعر فترتين من فترات مصر فترة الجبرتى التى عنيت باللفظ وفترة ثورة عرابى حيث بدأت عوامل التحرر والتجديد تسرى فى أعطافه . وبذلك كانت فترة التقليد قصيرة الامد بالمقارنة الى فترة مصر الطويلة .

ولابد من الاشارة الى أن الشعر العربى فى العراق بقيت جذوره الدينية ذات أثر واضح رغم ان الغذاء القومى بدأ يسقى أصوله ، لان الشاعر العربى لم يفصل بين الدين الاسلامى والقومية العربية ، فقد أراد الاصلاح للامة العربية وللاسلام فى اطار اسلامى ، خوفا من تقسيم الدولة العثمانية وسيطرة الدول الاوربية الغربية عليها .

وكان من نتيجة هذا الوعى ان سار حتى غير العرب فى التيار ولم

يكن الشاعر يرضى أن يسمى غير عربى ، لان ثقافته عربية وتفكيره عربى ، ولم يعامله العرب الا معاملة ابن بار من ابنائهم وجزء لا غنى لهم عنه • فقد اندفع الزهاوى والرصافى فى تأييد الفكرة العربية مع انهما ليسا من أصل عربى ، فقال الرصافى :

ونحن العرب نأبى غير عز ونطمح فى الحياة الى السموك

لانه كان يشعر بأنه شاعر العرب الذى ينافح عن حقوقهم وقال أيضا :

عهدتك شاعر العرب المجيدا لماذا لا تطارحنا النشيدا

وعندما احتل الانكليز العراق كان للادباء اليد الطولى فى الثورة عليهم فقد هيأوا الرأى العام للانتفاض على المحتلين ، بما كانوا ينشرونه من مقالات وما كانوا يخطبون به في المساجد أيام الجمع والمناسبات الدينية ويتحدثون به في دواوينهم ومجالسهم ومدارسهم ، وقد كان شعر هذه الفترة مسابقة وطنية تطفح بالالحان الوجدانية العذاب ، التى تهز المشاعر • وقد كان الشاعر يعتمد على اثارة العواطف وعلى الالقاء ، لذلك فشعر هذه الفترة مثل شعر حافظ ابراهيم من هذا الباب الذى يروعك سماعه ولا تهيجك قراءته • ومن شعراء هذا الباب كثير ممن لا أذكر منهم غير محمد مهدى البصير ومحمد باقر الحلى وناجى القشطينى وعبد الكريم العلاف ، وقد كان اكثرهم انتاجا الدكتور البصير ، فقد كان شديدا على المستعمرين صريحا فى المهاجمة ، حتى نفى الى هنجام مع من نفي من العراقيين • ودعا الى أخذ الحرية أخذا ولا يريدها منحة من المستعمر ، فقد قال :

وأشق من أسري علي بأن أرى يد آسري يوما تحل وثاقي

حدثت الثورة العراقية فى حزيران ١٩٢٠ ولكنها لم تصمد طويلا أمام القوات الانكليزية المدربة تدريبا حديثا ، وقد كان رد الفعل قويا فى

النفوس فاختلف الشعراء فى نتائجها ، كمـا اختلف ارباب الرأى فيها ، فمنهم من شمله اليأس ، ومنهم من واصل الكفاح ودعا اليـه حتى بلوغ الحرية والاستقلال ، قال خيرى الهنداوى :

ويـك لا أرتضـى الحيـاة بذل
قـم فمـزق اهابهـا تمـزيقـا
وأدر لي فى الرافـدين حميّـا الـ
ـحرب صرفـاً وكسـر الابريقـا
ان مـوتاً يكـون فى ساعـة العـ
ـز لمـوت أجـدر بـه أن يروقـا
يا لقـومى لقـد دهتهـا الدواهي
وهى تأبى من نومهـا أن تفيقـا

ولم يكن ضد الثورة غير الزهاوى فانه تجاهل الرأى العام وتحـداه وخاطب « برسى كوكس » فى محطة القطار قائلا :

عـد للعراق وأصلح منـه ما فسدا
واثبت به العـدل وامنح أهله الرشدا
الشعب فيـك عليـك اليـوم معتمـد
فمـا يكون كما قـد كان معتمـدا
ارأف بشعب بغـاة الشرّ قد قصدوا
اثارة الشرّ فيـه وهـو ما قصـدا
أما وقـد جئت مصحـوبا بمقـدرة
فلا أبـالى أقـام الشرّ أم قعـدا

ويذكرني هذا الموقف بموقف احمد شوقى من أحمد عرابى وموقف

الشاعر نسيم من الانكليز •

ولم يهدأ الوطنيون ويكفوا عن المطالبة بحقوقهم وانما كانوا فىصراع مرير مع المحتــل رغـم تأليف حكومة وزراؤها من العراقيين ، ولكن كان الوطنيون يعرفون حقيقة هذه الوزارة وحقيقة البرلمان الذى أسسوه ، وقد برز كثير من الشعراء فى هذه الفترة ما بين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ ونظموا فيضا عارما من الشعر السياسى الوطنى ، وتعد هذه الفترة أخصب الفترات الادبية فى الشعر العربى فى العراق • ولابد لي أن أذكر لحضراتكم ان الشعــــر العربى فى العراق خير سجل لحياته السياسية والاجتماعية ، وما يزال •

وقد بقى الشعر سائرا فى ركب القضايا الوطنية ولم يخرج شاعـــر على هذا الاجماع ، فاذا فشلت الثورة المسلحة ضد الانكليز فقــد نجحت ثورة التبرم والشعور بالكرامة وضرورة المقاومة ، اذ أن الشعراء أعـــادوا للشعب ثقته بنفسه بما كانوا يذكرونه له من أمجاد العرب وقوة العــــرب واتساع رقعة سيطرتهم وبما كانوا يعاملون به الناس من العدل ، ويقارنون بين آبائهم العرب وبين قوى الاحتلال ، فيظهرون المستعمر على مساوئـــه ويبرزون الصور المشرفة من حياة العرب الذين لا يقلون مجــدا وعــزة وتاريخا عن أية أمة من أمم العالم ، فقد قال أبو المحاسن يعتز بالعرب :

بقــومى أسمو راقيــا شرف العــلا
وأسطوا بهــم يوم الــوغى وأصــول
هــم القــوم ، أما عــزهم فمشــيد
تليـــد وأما مجـــدهم فأثيـــل

أو يقول :

يا ناطقا بالضاد ما لفضيلة
معنى يتم بغير حرف الضاد
أو ليس عصر النور من آثارهم
قبس لواضح نوره الوقاد

واتجه الشعراء الى السخرية اللاذعة من الوزراء الذين لا يقدرون على عمل شيء بدون استشارة المستشار الانكليزى فقال محمد باقر الشبيبى :

قالوا استقلت فى البلاد حكومة
فضحكت اذ قالوا ولم يتأكدوا
الحكم حكمهم بغير منازع
والامر مصدره هم والمورد
المستشار هو الذى شرب الطلا
فعلام يا هذا الوزير تعربد

وقد كان الرصافى أشد الشعراء تهكما وزراية وسخرية من نظام الحكم القائم ومن وزرائه ونوابه ، فقد قال يصف الوزراء الذين هم آلات وكتاب عند « برسى كوكس » وغيره من الاجانب فقال :

فوزير ملحق كالذ يل فى عجز الحماره
ذنب أصبح للحكم به أقبح شاره
وهو لا يملك أمراً غير كرسى الوزاره
يأخذ الراتب اما بلغ الشهر سراره

ورغم المقاومة الشديدة الا أن أساليب الاستعمار وأعوانه تمكنت من اقرار المعاهدة وفرضها على العراق بعد أن صبغوها بصبغة شرعية مزيفة ، ثم حدثت ثورة ١٩٤١ وثورة ١٩٤٨ وغيرها من الاحداث التى هى بحاجة

الى دراسة أخرى لا يمكنني أن أوجزها في هذه المحاضرة •

كان للاحتلال الانكليزي أثر بالغ في يقظة الرأي العام ، فقد فتح الاذهان على مظاهر مادية جديدة ونظام من الحكم جديد ، وبث في النفوس العناد والاصرار على المقـــاومة والنضال في سبيل الاستقلال التام ، ونزل الشعراء مع الجمهور ، وتركت الابراج العاجية خالية ، لرفع شأن الشعب وخلق جيل قوي يقدر على الجهاد ومواصلة الكفاح •

وقد كانت المشكلات الاجتماعية متشابكة ، فالتأخر ساد جميع نواحي البلاد ، والوطنيون يريدون شعبا قويا ، ولكن المتحكمين في البلاد هم مـن الدخـــلاء والانتهازيين ، فوقف الرصافي في تكريم الريحاني سنة ١٩٢٢ ونفسه تفيض حسرة وألماً فقال :

أ أمين جئت الى العـــراق لكي ترى
ما فيـــه من غـــرر العـــلا وحجوله
عفـــوا فـــذاك النجـــم أصبح آفلا
والقـــوم محتـــربون بعــــد أفـــوله
امـــا الحيـــا فيــــه فذياك الحيـــا
لـــكن مسيل المـــاء غـــير مسيله

ولم يصبر الرصافي الا أن يقول ان العميل المستورد وابناء البـــلاد الخونة هم أساس العلة في هذا الوطن ، وقد كان الملك فيصل حاضرا فقام وترك المجلس عندما قال الرصافي :

من أين يرجى للعراق تقدم   وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عنـــد جبانه ، والمال عند بخيله

ولعل من أطرف الاقوال قول محمود الملاح يصف الحالة العـامة التى تقسمها الانكليز (المساتر) مثل (سمث) و (كوك) فنعموا بالخيرات دون أهل البلاد • فقال :

الخير فى هذى البلاد مقسم بين (المساتر) من (سمث) و (كوك)

وقد عولجت مشكلة المرأة وحدث حولها جدل شبيه بالجدل الذى قام فى مصر عندما أثار قاسم أمين المشكلة ، وكان كل فريق يتخذ الاسلام قاعدة للذب عن مذهبه ورأيه ، وابرز الشعراء الذين ناصروا المرأة الزهاوى ، ففى شعره الكثير من ذلك ، وخلاصة رأيه تتلخص فى قوله :

قال : هل بالسفور نفع يرجى ؟
قلت : خير من الحجاب السفور
انما فى الحجاب شل لشعب
وخفاء وفى السفور ظهور
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور

وأجمل شعر وأعذبه لدعاة الحجاب للشيخ جواد الشبيبى :

منع السفور كتابنا ونبينا
فاستنطقى الآثار والآيات
تلك الوجوه هى الرياض قد ازدهت
للناظرين شقائق الوجنات
كانت تكتم بالبراقع خيفة
من أن تمس حصانة الخفرات
واليوم فتحها الصبا فتساقطت
بعواطف الالحاظ والقبلات

صونى جمالك بالبراقع انها

ستر الحسان ومظهر الحسنات

ومن الطريف أن دعاة السفور كانوا يحملون بشدة وبقسوة وبصراحة ، فهم يطالبون بحرق البراقع وخروج المرأة سافرة ، اما فى مصر فقد كانت المطالبة هادئة تمثل فى قول حافظ :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا بين الرجال يجلن فى الاسواق

وقد استأثر الاقطاع والفلاح بجانب كبير من الشعر العربى فى العراق ، فالفلاح العراقى جائع فقير مريض يكد للاقطاعى ويعمل عنده أجيرا ، وقد هرب الفلاحون من الريف وسكنوا المدن تخلصا من الاضطهاد ، وكان شيخ القبيلة الذى انقلب الى اقطاعى يعمل جاهدا فى سبيل تأخير تعليم الفلاح وتقدمه ، اذ ليس للفلاح قانون يحميه لنفوذ الاقطاعى وتأثيره فى جهاز الدولة ، وخير من وصف الفلاح احمد الصافى النجفى حين قال :

رفقا بنفسك ايها الفلاح

تسعى وسعيك ليس فيه فلاح

لك فى الصباح على عنائك غدوة

وعلى الطوى لك فى المساء رواح

هذى الجراح براحتيك عميقة

ونظيرها لك فى الفؤاد جراح

فى الليل بيتك مثل دهرك مظلم

ما فيه لا شمع ولا مصباح

فيخر سقفك ان همت عين السما

ويطير كوخك ان تهب رياح

بغضون وجهك للمشقة أسطر
وعلى جبينك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئاً
فيزان منه للغني وشاح

وقدكان هناك عددكبيرمن شعراء الفلاح أبرزهم محمدصالح بحر العلوم (اذ أهدى ديوانه للفلاح) والجواهرى والحبوبى ، والمظفرى والسودانى ولعل أطرف أبيات هى قول شاعر فلاح اسمه حسين وهج :

تخذنا من نبات الارض قوتا
ولم نشبع بمكسبنا البطونا
جهدنا زارعين بكل آن
فلسنا فى المزارع ناجحينا
بذلنا النفس فى جد وجهد
وعند الحاصلات (مفلسينا)

وتقابل مشكلة الفلاح فى القرى مشكلة الفقر فى المدن ، فقد رسم الشعر صورا رائعة خالدة ، ولا يكاد شاعر من شعراء بغداد الا يكون قد نظم فيها ، وعلى رأس هؤلاء معروف الرصافى ، ففى ديوانه جزء ضخم عالج فيه المشكلات الاجتماعية عامة والفقر بصورة خاصة ، وقد عالجها متأثرا بالتعاليم الاسلامية ، معتمدا على ارهاب الناس بالنار وعذاب اليوم الآخر داعيا الى انصاف الفقراء والارامل واليتامى ، يطرى الاحسان والمحسنين ولم يكن ثائرا فى دعوته وانما كان هادئا يرسل القول رخيا سهلا ، فهو يطالب بالاصلاح بحكاية يحكيها أو رواية يرويها واستدرار عطف الناس فيما بين حوادثها وسطورها فيقول :

ايهـا الاغنيـاء كم قـد ظلمتم نعـم الله حيث ما قـد رحمتم
سـهر البائسون جوعا ونمتـم بهناء من بعـد ما قـد طعمتم
من طعـام منوع وشراب
كـم بذلتم أموالكم فى الملاهى وركبتم بهـا متـون السـفاه
وبخلتـم بحـق الالـه أيهـا الموسرون بعض انتبـاه
أفتدرون انكم فى تبـاب

هذه هى الملامح العامة للشعر العربى فى العراق وقد اتخذته قاعـدة للبحث عن الادب كله لان النثر فى العراق لم يستكمل نضجه ولم يصل الى ما وصل اليه الشعر ، اما القصة فلا تزال بحاجة الى سنوات أخرى لتصل الى المستوى العالمى رغم وجود بعض كتاب القصة فى العراق •

ولا يزال الشعر فى العراق ينمو وتتفتح كل يوم ازاهيره عن ألوان جديدة ، ولا يمكننى حصر الشعراء ، غـير أنهم من الكثرة ما يخبر بأن الشعر العربى فى العراق لا يزال بخير • وممـن لم استشهد لهم : علي الشرقى ومحمد علي الجبوبى وبهجة الاثرى وحافظ جميل ونعمان الكنعانى وعلي الخطيب واكرم احمد وعبد اللطيف الشهابى ومحمـد بسيم الذويب وصفاء الحيدرى وعبدالحسن زلزلة وعبدالقادر الناصرى وخضـر الطـائى ومهدى مقلد وعبد الرزاق محيى الدين والازرى والدجيلى وبدر شاكـر السياب وشاذل طاقة وكثير غيرهم لا أحفظ شيئا من شعرهم •

وقد امتاز العراق بظاهرة جديدة هى بروز عدد من الشاعرات مثـل نازك الملائكة وعاتكة وهبى الخزرجى واميرة نور الدين وفطينة النائب ولميعة عمارة واخيرا من الطالبات آمال الزهاوى •

وهناك كتاب للمقالة والمسرحية الا أن هذه الفنون الادبية تتضاءل تجاه

شموخ الشعر العربى ، وقد تركت الحديث عن الشعر الحديث لانى لست من المؤمنين بكثير مما انتج منه ، ثم لأن فيه الكثير من الخور والضعف ، وان الكثير منه بعيد عن الشعر وموسيقاه •

وقد ظهرت بعض المسرحيات الناجحة فى الشعر مثل مسرحيتى الاستاذ خالد الشواف : الاسوار وشمسو • ومسرحيتى الاستاذ خضر الطائى : قيس لبنى واهل الكهف • ومسرحية مجنون ليلى لعاتكة الخزرجى، كما ان المرحوم عبد الستار القرغولى امتاز بنظم عدة مسرحيات للاطفال بعضها من التاريخ العربى وبعضها من قصص لافونتين •

ولعل السير على الاسلوب العربى الاصيل هو أهم مظهر من مظاهر الشعر، فأكثرية الشعراء لا تزال تؤمن به مع تجديد فى المعانى والاساليب والاخيلة ، ويدخل فى نطاق هذا اكثر الشعراء • وقد امتاز هؤلاء الشعراء بالنغمات العربية الاصيلة من اسلامية وعباسية •

ويتطور الشعر لدى الشاعر تبعا لثقافته وعمره ومقدار نفعه الفردى وأثر المعانى العامة فى نفسه ، ولو دققنا فى شعر كل شاعر لوجدنا تمثل التجربة الفردية ومقدار هضمها بالنسبة الى غيره من الشعراء وهذا أمر طبيعى فى النفس الانسانية •

واخيرا ارجو المعذرة والعفو عن كل تقصير وخلل •

والسلام عليكم ورحمة الله •

(*) ألقيت فى رابطة الادب الحديث فى القاهرة •

الزهاوى ... الشاعر القلق

للدكتور يوسف عز الدين

١ ـ عصر الزهاوى :

عاش الزهاوى فى عصر قلق مضطرب اهتزت مثله وتقاليده وعاش بين قرنين متغايرين ، القرن التاسع عشر الخامد المتحجر ، والقرن العشرين المضطرم المضطرب المتوثب فقد شاهد الهدوء والثورة وتأثرت نفسه المرهفة الشاعرة بالنقلة الجديدة .

فقد عاش فى العصر التقليدى الموروث ، وما فيه من ركود وهمود ، ورأى عصر الدستور العثمانى وما صاحبته من ضجة حين اعلانه وفرحة عند نشره ، وأحس بالخيبة التى اعتورت الناس عندما استأثرت جمعية الاتحاد والترقى بالحكم وبالخيرات دون أن يكون لشعوب الانبراطورية العثمانية أى نصيب . ثم كانت النتيجة تقسيم الامبراطورية العثمانية ودخول الحلفاء بلاده ، وما جر هذا الاحتلال على البلاد من ويلات وثورات جرت الى تأسيس دول وامارات ، وكان العراق أحد هذه الدول . ولم يرض العراق بالاستعمار فثار ثورته سنة ١٩٢٠ وكان من جرائها دخول الملك فيصل العراق وسلسلة من المعاهدات كان يفرضها الحاكمون ويرفضها الوطنيون ...

انه عصر حافل بالاحداث السياسية ..

وقد صاحبت هذه الاحداث ، أحداث فكرية واجتماعية هزت المجتمع ، وفتحت الاذهان على مثل جديدة ، واكتشافات حديثة ، وآراء غريبة عن

المجتمع ، فقد أخذ المثقفون يتحدثون عن نظرية النشوء والارتقاء ، وعن داروِن ، وعن الديمقراطية ، والاشتراكية ، والفاشستية ، وغير ذلك من التعابير الجديدة والمفاهيم الغريبة .. وسمع الناس صيحات تطالب باطلاق حرية المرأة ، ومساواتها مع الرجل وكان من جراء الحرب الاولى مطالبة الشعوب الضعيفة بالحرية والاستقلال وتقرير حق المصير ، ونشر مبادىء ولسن المعروفة ..[1] .

انه عصر طافح بكل جديد وموار بكل حديث وحديث ..

وقد كان لهذه الآراء ، وهذه الاحداث صداها في النفوس وفي التفكير ، فأخذ بعض المفكرين في مؤازرتها ونشرها بين الناس ، ونشطت بعض الآراء لمقاومة هذه التيارات الجديدة ولم يكن النشاط أو المقاومة وقفا على امة من الامم أو على جانب من الكرة الارضية ، فقد تغنى العرب بالحرية وتغنى بها أحرار الاتراك مثل نامق كمال وكان القصد ايقاظ الامم من سباتها الذي طال أمده ، واذا نادى قاسم أمين بتحرير المرأة في مصر فقد كان صدى هذه الدعوة يتردد في جنبات العراق ، وحدث فيه ما حدث في مصر من تأييد للفكرة ومعارضة قوية لها[2] .

وقد شهدت الدنيا حركات عنيفة وثورات سياسية واجتماعية ، واجتاح التيار القومي أكثر بقاع العالم ، وكان من أثر هذا التيار ابتعاد العرب عن الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، ونشاط انصار الجامعة الاسلامية لتأييد دعوتهم

---

(١) الشعر العراقي الحديث .. فيه تفصيل واف طبع في بغداد ١٩٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٠ وما بعدها .

والذب عنها بالخطب تارة وبالكتب مرة اخرى[٣] وبالدعوة الى احياء مجد القرآن الكريم والسير تحت راية الدولة المسلمة التى أخذت تهاجم من الكفار واعداء الدولة الكافرين •

وفى هذا العصر تظهر الدعوة القومية العربية قوة عارمة يصحبها دعوة الى انشاء انبراطورية عربية تضم شمل العرب فى أقطارهم المختلفة ، فتداعب أحلام العرب وتبسم آمالهم وأمانيهم لاستعادة الامجاد العربية القديمة ، فبعثت هذه الدعوة القوة فى النفوس والعزيمة فى مناهضةالاجنبى مستمدة من التاريخ العربى والاسلامى روح الكفاح والجهاد ، خاصة وأن الدستور العثمانى قد أعلن على أسس الحرية والعدالة والمساواة بين شعوب الانبراطورية العثمانية فيتألف حزب جديد من اعضاء مجلس الامة (المبعوثان) العرب باسم الحزب العربى[٤] لرعاية حقوق العرب فى البلاد العربية وغير البلاد العربية •

وفى مثل هذا العصر تظهر روح المجازفة فى روح ابنائه ، وتظهر الرغبات الكامنة فى النفوس فيسير بعضهم فى ركاب الحركة الجديدة ، ويعترى آخرين اليأس والخيبة لانهم لم يفوزوا بأمانيهم • وفى مثل هذا العصر تهيمن الفوضى الفكرية ويظهر القلق الروحى والاضطراب النفسى بين الافراد ، لانهم يرون مثلهم التى عاشوا عليها قد انهارت امام أعينهم •

---

(٣) اصدر حبيب العبيدى (حبل الاعتصام فى وجوب الخلافة فى دين الاسلام) بيروت ١٩١٦ راجع ص ١٠٢ •

(٤) تراجع جريدة المفيد وجريدة صدى بابل ففيهما تفصيل عن الحزب العربى •

وقد كان أثر هذا القلق ظاهرا على شعراء العرب فانعكس فى شعرهم(٥).

٢ ـ الزهاوى والعصر العثمانى :

وقد كان موقف الزهاوى واضحا فقد آزر السلطان عبد الحميد ومدحه والف كتاب (الفجر الصادق) يدعو الناس الى الجامعة الاسلامية لان الفكرة الاسلامية كانت مسيطرة بسيطرة الدولة العثمانية ، ودعا الناس للسير تحت راية العثمانيين واعتبر من لا يسير تحت هذه الراية ملحداً أو كافرا وباغيا وهاجم الحركة الوهابية واعتبرها حركة الفرقة الهالكة لانها شقت عصا الطاعة على الدولة العلية وأوجب تدمير هذه الفرقة التى نقضت بيعة السلطان وخرجت على طاعته . ودعا صراحة الى أن شروط الخلافة ليست ضرورية ولم يكترث بالشروط التى وضعها المسلمون للخليفة من العلم والفضل والخلق(٦) لأنه كان يريد ارضاء السلطان ويخشى شره ويتقى أذاه(٧) ولكن هذا الخوف أخرجه عن مثله العليا اذ خلق من السلطان

---

(٥) يراجع الشعر العراقى الحديث ـ للكاتب ـ ص ٣٢ ـ الى آخر الفصل والفصل الثانى بصدد الامثلة .

(٦) الفجر الصادق ص ١١ راجع المقدمة طبع القاهرة ١٩٠٥ والشعر العراقى الحديث ص ٢٥ وما بعدها .

(٧) فى نسخة السيد هبة الدين الشهرستانى حاشية كتبها السيد هى (وقد اعتذر لدى مما صدر منه فى صدر هذا الكتاب بانه ألفه مخافة استبداد عبد الحميد واضطهاده له) والتوقيع فى ٢٤ شوال ١٣٣٤ بغداد وعنوان الكتاب (الفجر الصادق فى الرد على منكرى التوسل والكرامات والخوارق) وكتب فيه (تأليف علامة العراق ونابغته بالاجماع والاتفاق من هو لكل فضل حاوى حضرة جميل افندى صدقى الزهاوى) وقد قرضه (ذو الادب الوافى معروف افندى الرصافى) بقوله :

هذا كتاب فيه يتضح الهدى علنا فتسطع للعقول حقائق
يا ظلمة الشبهات والكذب انجلى فلقد بدا للحق فجر صادق

عبد الحميد انسانا شبيها بالاله ، فجعل جميع تصرفاته فوق الشك وسياسته المثل الاعلى التي يجب أن تحتذى وبعزمه وحده يحفظ الاسلام ، وبقوته ينشر الاسلام . فقال في افتتاح (فصل يلدز) :

سلام البرايا في كلأة احمد بيلدز لا يغفو ولا يتغيب
وان امير المؤمنين لوابل من الغيث مُنهل على الخلق صيِّب[٨]

وقد افتتح فصل (الخليفة الاعظم ايده الله) بقوله :

سياسة مولانا الخليفة مخذم يُفلُّ به الامر العسير ويحسم
لقد سعدت أمَنا بلاد وسيعة بعدل أمير المؤمنين تنظم
لقد دام محفوظ الجناب مآثر اضاءت على الآفاق منهن انجم
وقد بعث الله الخليفة رحمة الى الناس ان الله للناس يرحم
ففي عهده قد أصبح الملك عامرا به الامن يزهو والامانى تبسم
هو الملك البر الرؤوف بامة أنار هداها والامام العظم
اقام به الاديان اركان دينه فليست على رغم العدى تتهدم[٩]

وقد كان شعراء هذا العصر وما قابله يعتبرون الخليفة العثماني رمزا للوحدة الاسلامية وكانوا يشيدون باخلاقه وفضائله ويرفعون ذكره وجعلوه ظل الله في أرضه فهو الذي يحمي بيضة الدين ويدافع عن المسلمين ويقاتل المشركين والكافرين[١٠] وكان الزهاوي أحد هؤلاء الشعراء وسار على ما تقضيه امور السلطة .

---

(٨) الفجر الصادق ص ٣ .
(٩) المصدر نفسه ص ١٠ .
(١٠) يلاحظ (الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) ـ للكاتب ـ فصل مدح السلطان بصدد التفصيل .

٣ ـ احتلال العراق :

وتتوالى الاحداث على العالم العربى ويحتل العراق ، وتظهر دعوات جديدة فيه من أجل نظام الحكم المقبل فى ظل الاحتلال ، فقد قامت جماعة تنادى ببقاء الانكليز فى العراق وقامت جماعة اخرى تدعو الى الجمهورية ونادت جماعة اخرى بالملكية واختلفوا فيمن يحكم البلاد هل النقيب ام الشيخ خزعل ام أغا خان ورشح آخرون أحد ابناء الحسين وقد كان مصير البلاد بين حفنة من الناس لا تهمها غير مصالحها تتنازع بعيدة عن الشعب وعن غاياته واهدافه ولا يعرف الشعب عامة بما يحدث وما تتقاذفه من التيارات . وفى هذا الخضم الزاخر بالاحداث تطالعنا جريدة العرب التى كان يصدرها الاحتلال بقصيدة بتوقيع (شاعر عربى) يقول فيها الشاعر المتخفى :

احب الانكليز واصطفيهم … لمرضى الاخاء من الانام
جلوا فى الملك ظلمة كل ظلم … بعدل ضاء كالبدر التمام

ويهاجم الاتراك مهاجمة عنيفة ويذكر مآسيهم وكيف انهم سلبوا حقوق العرب ويندفع بحماسة وحرارة ويقول :

تبصّر أيّها العربى واترك … ولاء الترك من قوم لئام
ووال الانكليز رجال عدل … وصدق فى الفعال وفى الكلام
وانت تسومك الاتراك خسفا … وتسلب من حقوقك باهتضام(١١)

ولما بحثنا عن قائلها وجدناه الزهاوى فقد نظمها ونشرها فى ديوانه الكلم المنظوم سنة ١٩٠٩ ولم نكن نلومه لولم يعد سبكها ونشرها سنة

---

(١١) جريدة العرب سنة ١٩١٨ والكلم المنظوم ص ١٤ طبع ١٩٠٩.

١٩١٨[١٢] ويعجب القارىء كيف وقف من الاتراك هذا الموقف وانقلب عليهم •

لا شك ان القلق النفسى الذى استحوذ على الشاعر هو الذى دفعه الى هذا التناقض دفعا • فقد كان الزهاوى مكرما وكان عزيزا وكانت لـه منزلة سامية رسمية ، زمن الدولة العثمانية وعندما دخل الانـكليز العراق خشى ان يفقد مكانته وخشى اذى السلطة الجديدة الحـاكمة وقد هدد فعلا بالاعتقال باعتباره من رجال الدولة العثمانية المرموقين وبالنفى الى الهند لكنه اثبت انه كان مراسلا لجريدة (المقطم) الموالية للانكليز فعفى عنه • ولكنه لم يصل الى ما وصل اليـه فى العهد العثمانى وانما اهمل شـأنه ، وبذلك كبتت فى نفسه غريزة التقدم والظهور في المجتمع الجديد، وفقد غريزة التأكيد على النفس •

كان رد الفعل فى نفسه عميقا ، وكانت معركة حامية الوطيس ، بين موالاة السلطة الجديدة وبين التأكيد على الذات ، فغلبته الغريزة لان جذورها كانت عميقة فى نفسه وتطمئن رغباته •• لم لا يحصل على مركز اجتماعى اعلى من المركز الذى حصل عليه فى الدولة العثمانية ؟ فقـد كان نائبا عن بغداد ونائبا عن المنتفق ، ولـم تـكن فى العراق مناصب مرموقـة تتمشـى وغروره غير الوزارة • فلم لا يكون وزيرا فى وزارة النقيب الاولى ، وقد أصبح فيها وزير من لا يساويه فى العلم والشهرة والمقـام الاجتمـاعى ؟ ! ان عدم حصوله الى ما تطمح اليه نفسه كان اهمالا لقدره وطعنا فى ذاته ، وتجاهلا لمكانته ، فظن الزهاوى بأنه أصبح كمّاً مهملا وانه سيفقد احترام الناس وتقديرهم له • والمرء حريص على تقدير المجتمع واحترامه ، وعدم حصوله على المنصب الرسمى معناه اندحار واحتقار له ، فتسرب القلق الى نفسه والخوف الى ذهنه •

---

(١٢) الادب العصرى ج ١ •

كانت معركة نفسية انتصرت الغريزة فيها ودفعته الى مدح الانكليز ونسيان كل ايام الاتراك ومناصبهم فى البرلمان أو فى تحرير جريدة الزوراء الرسمية ، أو فى حصوله على الوسام المجيدى[١٢] •

كان الزهاوى رحمه الله يتدفق حيوية ونشاطا وكان شابا متوثبا رياضيا يغتصب اعجاب الاقران ويتفوق عليهم[١٣] فقد ألفت نفسه التقدم صغيرا لنشاطه وذكائه ، وحاطت به هالة من التقدير والاحترام لانه كان ابن مفتى بغداد وزادت مكانته الرسمية عندما فاز بالنيابة فى البرلمان العثمانى مرشحا عن جمعية الاتحاد والترقى وهى السلطة الحاكمة • فالقوة والمركز الرسمى ومركز الاسرة ، أمور أكدت ذاته حتى انه برز بين اخوانه نواب العراق وتميز عنهم عندما تبنى القضايا العربية وطالب بجعل اللغة العربية لغة رسمية فى العراق أسوة بما هو فى الشقيقة العربية سوريا[١٤] فنال التقدير والاحترام وحف النواب العرب وغيرهم به تقديرا واعجابا •

أراد الزهاوى أن ينال مثل هذه المكانة فى هذا العهد بعد أن تفرقت اشلاء الانبراطورية ودخل العراق فى حوزة الانكليز • وقد أراد اثبات ذاته فهرع الى المحطة مع الناس ووقف خطيبا فى استقبال حاكم العراق السير كوكس وأوغر صدره ضد الثورة العراقية (١٩٢٠) وكانت فى أتونها تسعر • كما ساند عبد الرحمن النقيب وحزبه (الحر المعتدل) وانضم اليه كما انضم من قبل الى الاتحاد والترقى آملا أن يحوز منه ما حاز فى الماضى ،

---

(١٢) الادب العصرى ج ١ •

(١٣) رسائل الزهاوى نشرها فى مجلة الكاتب المصرى •

(١٤) نص أقواله فى مجلس المبعوثان مترجمة فى شخصيات عراقية للاستاذ خيرى العمرى ص ٦٩ و٧٠ •

غير ان سياسة الحزب لم تكن على أسس شعبية وما استهدفت مصالح الشعب لانها كانت تسند عبد الرحمن النقيب الذى استند عليه الانكليز لجعله واجهة يتسترون وراءها فى حكم العراق ، مغتنمين كبر سنه وسمعة اسرته الدينية ومنزلتها بين الناس ، ولكنهم سرعان ما نبذوه لانه لم يسر فى الخط الذى كانوا يرسمونه له ، ووجدوا من يقوم بخدمتهم وخدمة مصالحهم •

كان الزهاوى يترقب قلقا واجفا الحصول على وظيفة وقد رضي عنه الانكليز واعتبروه شاعرهم(١٥) وجاء عبد المحسن السعدون زميله فى مجلس المبعوثان الى الحكم فعينه سنة ١٩٢٥ عضوا فى مجلس الاعيان •

تظافرت كل عناصر القلق على الزهاوى تقدم فى السن ، وخور فى القوى ، وامراض وشلل ، وبدت أعراض المرض تقوى وتشتد عليه فلا يكاد يمشى منفردا خوف الاكباب والسقوط • وخيبته من الملك فيصل عندما هرع يحيه بقصيدته المشهورة :

انا محيوك فاسلم ايها الملك ومصطفوك لعرش زانه الفلك

ويهدى ترجمته لرباعيات الخيام له فيُطلق عليه شاعر الملك، ويخصص له راتب قدره ستمئة روبية يرتفع الى ثمانمئة ، فيرفض الزهاوى ، لانه لا يريد أن يكون مجرد زينة فى البلاط وانما يريد أن يكون له مقام اجتماعى ومركز رسمى يشعر بذاته وبكيانه وبقابليته وقال انه لم يرفض

---

(١٥) لاحظ مذكرات (مس بل) المطبوع فى لندن سنة ١٩٢٧ الصفحات ٥٦٢ و٥٩٣ و٦٠٦ فقد جاء فى الصفحة ٦٠٦ ما معناه (ثم نهض شاعرنا الكبير الذى طالما أخبرتك عنه ــ جميل الزهاوى) وص ٥٦٢ بشأن خطابه فى قدوم كوكس •

استكبارا وانما الشاعر الاجير لا يمدح عن شعور[١٦] والواقع ان الزهاوى اعتذر ، مع انـه بالغ فى المديح وأوغـل فى الزلفى لانه يريد أن يكون مرموقا ويريد أن يكون فى عمل يحترمه فيه الناس لا أن يكون زينة .

أراد الزهاوى أن يصل ويصل بسرعة فهادن الانكليز وسار مـع الحزب الحر وهاجم الاتراك طمعا فى اثبات ذاته وتأكيدا لشخصيته ، فأضاع الوفاء الذى حفظه الرصافى للعثمانيين .

٤ ـ ثورة الزهاوى :

ولما لم يتحقق للزهاوى حلمه رفع راية التمرد لاثبات ذاته ولتأكيـد شخصيته فدعى الى تحرير المرأة بالعنف وبالقوة ودعا الى الفلسفـة والى الاخذ بنظرية دارون وحشر نفسه فى أمور كثيرة مثل نظرية الجاذبيـة وألّف فى الداما وفى الطير القـلاب[١٦] وغيرها من الامور لكى يثبت انه عبقرى وانه فيلسوف وانه عالم وانه يأتى بما لم يأت به غيره من الاقران .

والواقع ان دعوته الى الفلسفة وتحرير المرأة وما طالب به لم يكن الا اندحارا نفسيا للتأكيد على الذات فقد توهم بانه مندحر والانسان حريص على أن يكون محترما وأن يكون محفوفا بالتقدير والفوز لذلك لما توهم بهـذا الاندحار توهم بانه أهين وان كرامته قد جرحت لذلك شكا بكل حرقـة ولوعة للاستاذ احمد حسن الزيات واستجداه الاحترام عندما قال له (أذيب عمرى فى شعرى والامة تقذفنى بالبهتـان والحكومة تخرجنى من مجلس الاعيان ..) فحسب الشعب والحكومة ضده فكان صدى هذه الخيبة ثورة

---

(١٦) راجع الكاتب المصرى ص ٤٦٥ العـدد ١٥ السنة الرابعـة ١٩٤٦ .

فى شعره يعتصرها الالم فقال :

افتحوا للفتى الهظيم الطريقا   فلقد جاء يزبئر حنيقا
رافعا راية التمرد تهفو   حاملا من يراعه منجيقا[١٧]

أرأيت أشد قسوة من هذه الثورة التى تريد أن تدمر عمياء كالمنجيق دون وعى لتطفىء غلة الزهاوى الذى لم يفتح له الطريق والذى منع من اثبات ذاته وفرض شخصيته فظن انه منع من التقدم وانه لم يقدر حق قدره فقال :

ايها الدائسون بالرجل حقى   ليس حقى بان يداس حقيقا
قل لابناء يعرب ان فى القبر   أباكم يذم هذا العقوقا
أخذت آمالي تضيع واخشى   اننى لا أرى لها تحقيقا

لم ينل الزهاوى ما يريده فسخط وثار وتألم لانه رأى غيره يتقدم فى مناصب الدولة وقد تأخر عنها هو وبذلك لم تشبع رغبته فى التقدم واثبات ذاته والتى برزت كثيرا فى شعره •

وللحق والتاريخ ان الزهاوى كان أحسن بكثير ممن تسنموا وظائف الدولة المرموقة الثقافية منها وغير الثقافية ولكن اندفاع الزهاوى وتقلبه السريع وعدم رزانته ، حوائل حالت دون وصوله الى ما يريد ، فقد فت فى عضد الوطنيين خلال الثورة العراقية • ثم راح يرثى الشهداء ثم هاجم الدخيل ومدح الاتراك ثم هاجمهم وهاجم الوهابية ثم مدح الملك السعود الوهابى •

ولما رأى احلامه تنهار انكمش على نفسه وندب ايامه فى ظل الحكم

---

(١٧) الاوشال ص ١١٤ •

العثماني مستغفرا لما قدمه قائلا والحسرة تملأ قلبه :

اين عزى فى دولة الاتراك انا ممـــا فقـــدته انا باكى
كنت بالامس راضيا عن حياتى وانا اليوم من حياتى شاكى[١٨]

وليظهر قدرته وتبرمه وليثبت ذاتـــه فسمى القصائد التى نظمها فى الملك (المطرودات) ولسان حاله يقول :

قـد مدحت الذين لم يستـحقوا مـدائحى
احسبوها على ضرور تهـــا من قبـائحى

وتطول بالرجل ايام الانتظار فيرثى له اخوانه ويؤملون له الفـــوز ولكن تطول ايام الانتظار فيقول :

يقـولون صبراً يا جميـل على الذى
أصـابك من ضـيم وانى لى الصـبر
ولابد من حـرب على مـن تعصـبوا
عـلي فـأردى أو يفىء لي النصر
وكل امرءٍ يسعى الى المجـد جاهدا
ولكن طريق المجـد أكثـره وعـر[١٩]

وأراد أن يكسب الرأى العام ويؤكد اهميته فأعلن انه سيهاجر وانـه يترك العراق لانه لم يأخذ المكانة اللائقة به فقد أضناه العذاب وارهقـــه الاهمال ، وهاجم الدخيل الذى يستفيد وحده من خيرات وطنه وقال :

انى على الاوطـــان انفـــق مهجتى
اما الدخيـــل فأى شـــىء ينفـــق

---

(١٨) الاوشال ص ١١٤ .
(١٩) الاوشال ص ١١٣ .

قــد يسـكت المهضـوم الا زفـــرة
منـــــه والا عبـــرة ترقـــرق[٢٠]

هذا القلق كان كما رأينا نتيجـــة من نتائج المجتمع نفسه أثرت على الزهاوى نفسه وهو غريزة يصاب بها كل انسان وشدة الحرص نتيجة لما يعتور النفس الانسانية وخاصة اذا كانت تتعلق بالمركز الاجتماعى لانسان تمتع بهذا المركز وأحيط بالاحترام والتقدير وقد صورت نفس الزهاوى القلقة آلامه أكثر من واقعها لرهافة حسه فظن الامر على غير حقيقته فقال :

قــد تعــذبت فى العــراق كثيرا
كنت فى حبـــه أقاســى سـعيرا
والذى فيــه قــد أطــال عذابى
كان خصـما على عــذابى قــديرا[٢١]

وقد تصدت احدى الجرائد عندما أعلن رأيه له وقالت انه عندما طلب جواز السفر منحته الحكومة اياه مع راتب لمدة سنة فأسقط فى يديه ولـــم يسافر الا بعد ثلاث سنين[٢٢] فهـــل أراد أن يثبت ذاته للسلطة فلم يفلح فقال :

ان اعـــدائى فى العـــراق كثـير
كلهـــم فيــــه آخـــذ بخنـاقى
سـاولى ربوع بغــــداد ظهـــرى
تاركا خـــيرها لاهـــل النفـــاق

(٢٠) الاوشال ص ٣ ٠
(٢١) الاوشال ص ٦٧ ٠
(٢٢) جريدة شط العرب سنة ١٩٢٤ ٠

وتتجلى رغبته النفسية ومقدار ما يريده لنفسه فى قوله :

قـد رحلنـا عن العـراق جميعـا
أنا والشعر والهـوى باتفـاق[٢٣]

وقوله :

ما عسـى أن تفيـد نفسـى المسـاعى
ان قضـت بالحبـوط فيهـا الدواعى
انا والحـق فى العـراق مضـاعا
ن ، ومـا فيـه غـيرنا بمضـاع[٢٤]

٥ ـ **الزهاوى والرصافى :**

وقد زاد فى قلق الزهاوى بروز عامل جديد فى حياته هو عامل المنافسة الذى لم يكن يحسه بهذه الحدة وانتشار أمره بين اصحاب الجرائد والمجلات الذين كانوا يريدون اثارته • والناس متى وجدوا ثغرة فى ضعيف جسموها له واستغلوها حسب اهوائهم ورغباتهم • خاصة والزهاوى لم يعد عضوا بمجلس الاعيان وظن المنصب الحكومى يزيد فى تأكيد ذاته وشخصيته، وقد استغلت الجرائد شعر الرصافى وقوته وقارنوا بين الشاعرين ، ولم يكن للزهاوى سند غير شعره الذى لا يضاهى شعر الرصافى وشخصيته التى لا تقوى على مجابهة شخصية الرصافى • فقد كان الرصافى شاعرا شابا قوى الاسلوب ، رصين العبارة ، ضخم الجثة ، مهاب الطلعة ، وكان الزهاوى مريضا ، مشلولا ، ضعيف الاسلوب ، مترجرج الشخصية •

---

(٢٣) ديوان الزهاوى ص ٣٤٥
(٢٤) ديوان الزهاوى ص ٢٠٢ •

وزاد في قلق الزهاوي ، وضاعف أساه الحركة التي شنها أنصار الرصافي على الزهاوي . فقد كتب رفائيل بطي مقالا يمتدح به الرصافي ويقول بأنه أول من نظم الشعر القصصي ، فيثور الزهاوي الذي لا يرى غير نفسه شاعر العراق وعلامته ونابغته فكيف يفوقه الرصافي . فتظهر مقالة تهاجم كاتب المقال وتظهر الزهاوي بمظهر السباق وانه أول من نظم الشعر القصصي في العراق وتبالغ وتقول انه (أسبق شعراء العرب) والطريف ان الناشئة الجديدة عندما تنشر المقال تقول ان الزهاوي أملاه على كاتبه وتشتد الخصومة وتكتب عنه قائلة ان الزهاوي دعا الفيلسوف الالماني انشتاين الى المبارزة و (قواعد المبارزة جذبا ودفعا ورباعيات ، ولا نخال انشتاين يتهور فيقدم على هذه المبارزة لان تلاوة رباعية واحدة كافية لصرعه في حلبة البراز) وقالت ان لجنة الطب الادبي قررت تلقيح الجرائد والمجلات بلقاح يقيها جراثيم الرباعيات ، وتذهب بعيدا في التهكم وتقول ان جامعة اكسفورد قررت ترجمة قصيدة الزهاوي الفلكية ليستظهرها الاساتذة المختصون[٢٥].

ويتصدى محمود احمد ويرجع جميع آراء الزهاوي الى الشعراء والكتاب الآخرين ويأتي بأمثلة من نظم الزهاوي لآراء كوستاف لوبون ومنها (عجبا للحب يخاف الريب والشك ينميه واليقين يميته) فقال الزهاوي :

الحب بالشك يحيا وباليقين يموت

ومن الشريف الرضي في قوله :

ساكت انت والاعادي تقول ومضرّ بك السكوت الطويل

فقد قال الزهاوي :

راحل انت والليالي تزول ومضر بك البقاء الطويل

---

(٢٥) تراجع اعداد الناشئة الجديدة سنة ١٩٢٣ .

ويتصدى ابن أخيه ابراهيم أدهم الزهاوى ويدافع عنه ويهاجم محمود احمد ورفائيل بطى ويتدخل الادباء منتصرين لجانب من الجانبين ، فتقف مجلة (ليلى) الى جانب الزهاوى ولا تتأخر جريدة الامل عن المساهمة فى المعركة وتؤدى نصيبها منها .

ويصدر الزهاوى مجلة (الاصابة)[٢٦] قال عنها انها منار للنضال عن الحق فى العلم والادب وانه ينازل فيها انصار القديم الذى لم تعد فيه فائدة للامة التى تريد النهوض فى القرن العشرين ، ولن يتساهل أو يرأف بمن يتشيع للباطل وسيصليهم حربا شعواء ...

وهناك قصص كثيرة من مثل هذه المعارك والمنافسات بين الشاعرين . كان يتدخل فى اصلاح ذات البين بينهما اخوان الشاعرين والاخيار منهم ومن ذلك ما قام به الاستاذ محمود صبحى الدفترى مرة اذ جمع بين الاديبين وصالحهما .

وقد بقى الزهاوى قلقا يتوقع أن ينال عملا وجل آماله كانت معقودة على العودة الى مجلس الاعيان غير أن القدر لم يمهله اذ توفى فى شباط ١٩٣٦ .

رحم الله الزهاوى فقد أتعب نفسه كثيرا ، ولكنه سجل فى لوح الخلود[٢٧] .

---

(٢٦) لم يصدر الزهاوى غير ستة أعداد عدد صفحاتها جميعا (٤٨) صفحة فقد صدرت فى يوم الجمعة ١٠ ايلول ١٩٢٦ وصدر آخر عدد منها يوم الجمعة ١٥ تشرين الاول من السنة نفسها .

(٢٧) شخصيات عراقية للاستاذ خيرى العمرى .

للمؤلف

١ ـ الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر بغداد ١٩٥٨

٢ ـ الشعر العراقى الحديث ، وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه بغداد ١٩٦٠

٣ ـ فى ضمير الزمن (مجموعة شعر) مصر ١٩٥٠

٤ ـ ألحان (مجموعة شعر) مصر ١٩٥٣

٥ ـ لهات الحياة (مجموعة شعر) بيروت ١٩٦٠

٦ ـ داود باشا (بحث) بغداد

يعد للطبع

١ ـ الاخرس حياته وما لم ينشر من شعره

٢ ـ تاريخ العراق فى القرن التاسع عشر

٣ ـ رواد الشعر العربى الحديث فى العراق

STUDIES IN ARABIC LITERATURE

Literary Trends in Iraq

AL-Zahawi - The Restless Poet

Yousif Izzidein
B. A., M. A., Ph. D.
Faculty of Arts



AL-NAHDAH PUBLICATIONS, Baghdad
1962

طبع الغلاف في مطبعة العامل ـ بغداد